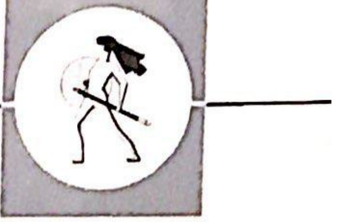

من قصص المقاومة السوفياتية
للقاص السوفياتي
يوري غورباتوف

بيريوزونكا

« عندما كنا ندفن جثث المواطنين السوفيات الذين اعدمهم الجزارون الفاشست رميا بالرصاص في قرية تيتوف خوتر في منطقة دوخانشينسي ، عثرنا بين الجثث على طفلة جريحة في نحو الخامسة او السادسة من عمرها تدعى جينيا . وقد نقلنا الطفلة وعالجناها وانا اشهد على ذلك واضع توقيعي » .

(ن. شوركين ، قائد احدى فرق الانصار سابقا)

استعد اهالي قرية تيتوف خوتر في اقليم سمولنسك في ذلك الصباح لزراعة البطاطا . وكانوا قد عزقوا التربة ، وفتحوها بالمعاول ، وتهيأوا لدس رؤوس البطاطا فيها . وعلى حين غرة ، دوت صرخة قوية :

– فاشست !

وما لبث ان ظهرت دبابتان ، وبعض السيارات المدرعة من وراء عنابر الحبوب ، واصطفت في الطريق . وما عتم ان ترجل منها جنود في اردية سوداء ، وبايديهم مدافع رشاشة ، واحاطوا بالبيوت بسرعة ، وشرعوا يطردون السكان منها :

– سنعقد اجتماعا ينبغي ان يحضره الجميع حالا

واجتمع الناس على ضفة النهر عند اسفل احد المنحدرات. وصدر الامر للرجال بالاصطفاف فظهر من بين الذين تجمهروا كهول ملتحون ، كما ظهر المحاسب الاحدب ، وصبي في سنه الخامسة عشرة كان ملتصقا بامه ، ولكنهم انتزعوه منها انتزاعا . فنظر الصبي بهلع ورعب اليهم ، وبدأ يزرر قميصه بحركة عفوية ، وكان الى جانبه رجل ذو عاهة يستند الى عكازيه :

وقال المترجم :

– انكم جميعا تساعدون الانصار ، ولهذا فستعدمون رميا بالرصاص على الفور .

وبدأ الالمان يقتلونهم واحدا بعد اخر ببطء ، فيما كان الضابط المسؤول يتلذذ مستمتعا بتدخين سيكارته . اما الكهول الذين وقفوا في انتظار الموت ، فقد بدأ بعضهم يصلي . وما لبث الصبي ان صرخ وسقط على ظهره مضرجا بدمه عند نهاية عكازي المشوه ذي العاهة ، وهو لم يكمل تزرير قميصه بعد .

وكانت تسمع من بين صفوف النساء والاطفال على ضفة النهر صرخات تمزق نياط القلوب ، فيما كانت السنة النيران تبتلع القرية ، ودخانها يتصاعد متطفرا فوق النهر .

وانفصل الفاشست عن الجثث بهدوء ، وتوجهوا الى سياراتهم ، من حيث انطلقت نيران الرشاشات تحصد النساء والاطفال المحتشدين . بيد ان البكاء والانين كانا ما يزالان مسموعين ، فالقى جنود الصاعقة قنابلهم اليدوية على الجثث وانتظروا قليلا يتمتعون بمنظر القرية تلتهمها الحرائق ، ثم بارحوا المكان .

وجاء بعضهم بنبأ نيقولاي سوركين قائد احدى فرق الانصار بأن اللهيب والدخان كانا يشاهدان طيلة الليل والنهار في القرى الواقعة الى الغرب من هذا المكان . وقد شاهد بنفسه الحرائق وادرك ما وراءها . فقد كان كل ذلك ثارا لاربع دبابات دمرها الانصار .

وتوجه نيقولاي شوركين ، عند الغروب ، على رأس مفرزة من الخيالة الى قرية تيتوف خوتر . وكانت رائحة الحريق ما تزال تفعم الجو ، مما بعث المزيد من القلق والانزعاج في نفوس الانصار . وانطلق شوركين على حصانه مسرعا .

وافادت مفرزة الاستطلاع بأن الطريق مفتوح . وعندما وصل الخيالة ضفة النهر ، ترجلوا وخاضوا النهر . وشاهد الانصار بين الانقاض جثث القرويين . وخلع سوركين قبعته ، وضغط بقبضة يده . وسمع فجاه انينا واهنا ، فتقدم ، وقلب جثة امرأة ، فرأى عيني طفلة ملئتا رعبا وهلعا . فمد اليها يديه ، يدعوها ، لكنه لم يستطع ان يتفوه بشيء ، فقد بحت حنجرته .

وصرخت الطفلة – الماني ! الماني ! الماني !

وزحفت من جديد الى جثة امها التي كانت قد حمتها بجسدها قبل وفاتها .

وقال شوركين : يا طفلتي العزيزة ، اني روسي ، روسي ، من الانصار . لكن الطفلة تراجعت عنه وصرخت :

– الماني ، الماني ! اني اريد المضي الى امي !

واخذ شوركين الطفلة من بين الجثث ومضى بها الى المرج . واقعد شوركين الطفلة على معطف عسكري بسطته الممرضة تانيانا شيرنتش على العشب . كانت الطفلة ترتدي فستانا ابيض ، وكانت ضفيرتاها الشقراوان قد ربطتا بشريط ابيض ، كذلك .

– بيريوزونكا ! لقد انقذتها امها ! الام تظل اما على الدوام .

وفحصتها الممرضة ، فوجدت في بدنها تسعة جراح ، فعجلت بتنظيفها وتضميدها . اما الانصار فبدأوا يحفرون القبور صامتين عند ضفة النهر . وعند الشروق كان التراب قد اهيل على مئة واربع جثث ، هي جثث اهالي قرية تيتوف خوتر .

وعلى المقبرة وضع شوركين المكازين ، وقال :

– سنعود الى هنا لنؤدي واجب الاحترام !

واعد سلاحه ، وامر فريقه بامتطاء خيولهم .

وعاشت الطفلة طيلة الصيف مع فرقة الانصار. وعرف الجميع ان اسمها جينيا واسم عائلتها فيلنكوفا . غير ان الانصار اطلقوا عليها اسم « بيريوزنكا » .

وفي تلك الفترة كانت تدور رحى معارك ضارية مع العدو . وفي كل ليلة كان فريق الانصار يتوجه الى ما وراء النهر حيث كانت قطعان الفاشست تواصل الزحف باتجاه الشرق .

وكانوا يعودون بالهدايا ، بعد كل جولة من جولاتهم ، الى « بيريوزنكا » ، ويتجمعون قرب مستشفى الانصار . على ان الممرضة لم تكن تسمح لهم بالدخول لان جينيا كانت ما تزال مريضة وترتعب من كل شيء ، وكانت تختبيء في الزاوية ، وتحجب وجهها بيديها الغارقتين بالضماد عند سماعها صوت محرك او طلقة او حتى صوت باب يفتح . وكانت في كل مرة تصرخ : الماني ! الماني ! الماني !

واغارت الطائرات الالمانية ذات مرة على قاعدة الانصار ، وصبت وابلا من قذائفها ، ونيران رشاشاتها حتى على الاشجار التي تكتنف الطريق . ومع انها لم تستطع الحاق اذى كبير ، الا ان شوركين استدعى الممرضة بعد هذه الغارة ، وقال :

– يجب نقل الطفلة الى القرية ، حيث سيمكن ضمان سلامتها اكثر .

واخذت احدى قريبات فيلنكوفا ، المدعوة بفراسينيا ، اخذت الطفلة جينيا بسرور ، مع انه كان لديها الكثير من الاطفال . ومع مرور الوقت اعادت جينيا على صديقاتها ، واخذت تتماثل للشفاء .

على ان الجبهة كانت تقترب من القرية . وقالت بفراسينيا محاولة تهدئة الاطفال :

– ان جنودنا يقتربون ويشنون هجومهم على طول الجبهة . لكنها لم تستطع ان تنتظر ، فعلا ، وصول الجيش السوفياتي ، فقد توفيت بمرض التيفوس الذي كان منتشرا بين الجياع . ونقلت جينيا الى دار الايتام ، التي كانت تقع غير بعيد من القرية .

وكرت السنون عجلة ، وضمدت البلاد جراحها ، وترعرعت جينيا ، التي اطلق الانصار عليها اسم « بيريوزنكا » . واكملت دراستها ، وتخرجت لتلتحق بمعهد المواصلات ، لكنها لم تكمل الدراسة ، فقد تركتها وهي في السنة الثالثة في المعهد ، بسبب جراحها القديمة . فقد كان الدوار يغشاها بين حين وحين ، كما كانت تعاودها الام يدها اليسرى المشوهة ، وغالبا ما كان نومها مضطربا . واضطرت للعمل في احد مراكز البريد في مدينة سمولنسك .

* * *

وذات مرة ذهبنا انا وجينيا من مدينة سمولنسك الى قرية نيقولا – بولوريلوبه حيث يعيش نيقولاي شوركين . ومع ان الطقس كان ما يزال باردا ، الا ان الشمس صارت ترسل اشعة دافئة الى الارض ، فذابت الثلوج على سطوح البيوت ، وفي الطرق . كان الجو يفوح بانفاس الربيع .

والتقينا نيقولاي في الشارع ، وقد بارح مكتب السوفخوز (المزرعة الحكومية – المترجم) يسير بساق خشبية . ولاحظت ، ونحن على بعد امتار منه ، عينيه ، وقد اغرورقتا بالدموع .

وبدا انهما ما عرفا البكاء قط من قبل . وقال شوركين مادا ذراعيه الى جينيا :

– ايتها الطفلة العزيزة ! وما لبث ان قبلها ، ودعانا الى البيت .

واستعرض الاثنان الصور الفوتوغرافية للمكان الذي كانت تقع فيه قرية تيتوف خوتر ، حيث ظهرت الان غابة . اما المكان ، حيث ذبح الالمان سكان القرية قرب ضفة النهر ، فقد طلع نصب تذكاري تعلوه نجمة .

وآن الاوان لنغادر القرية ، لكننا بقينا جالسين ولم نستطع مبارحة نيقولاي . وكان نيقولاي وجينيا يتذكران ايام الحرب ، وكفاح الانصار ، ويتحدثان عن بطولة الشعب وبسالته . وعادت الذاكرة بنيقولاي الى الحادث الذي جفف فيه التعاونيون بركة ماء تقع قرب قرية اوزارنيكي لانتشال دبابة اغرقت فيها . وكان احد سائقي الدبابات قد اغرق ، عند تراجع القوات السوفياتية ، هذه الدبابة لنفاد وقودها . وقال سكان القرية اذ ذاك :

– ستكون هذه الدبابة ذات جدوى فيما بعد .

وكان الامر كذلك .

اذ عندما ظهر الانصار في القرية اخبرهم التعاونيون بموقع الدبابة ، واحتشد الناس من القرى القريبة وجففوا بركة الماء ، واخرجوا الدبابة بالحبال . وكانت هذه الدبابة فيما بعد مثار رعب في قلوب الاعداء .

لقد استمعت الى حديث نيقولاي سوركين وانا اتصور رجلا يحمل طفلة بين ذراعيه ، واتخيل الحرائق ، والوف الاشخاص يجففون بركة الماء لاخراج الدبابة . واذا لزم الامر فسيجفف هؤلاء الناس ، من جديد ، بحرا كبيرا ، وليس بركة فحسب ، وسيخرجون منه اي شيء ، مهما كان ثقيلا وضخما ■■

★ بيريوزنكا – مصغر اسم « بيريوزا » ، وتعني بالروسية شجرة البتولا الشهيرة (المترجم)

ترجمة : د. جليل كمال الدين

للجلادين أوجه متشابهة

اين رأيت هذا الوجه ؟

هذا ما كنت افكر به وانا احدق في ذلك الوجه الذي يطل علي من الشاحنة العسكرية .

وجه جاهم . عابس . يخفي اكثر من نصفه الخوذة الفولاذية . تفرست اكثر. غير معقول . اين رأيت هذا الوجه ؟

لم يستطع صالح ان يكمل دراسته، كان ابن مزارع فقير . ترك الدراسة . تقلب في اعمال شتى . ثم ، وربما بواسطة كبيرة ، انخرط في سلك قوى الامن .

علموه :

الشعب = رعاع

المناضلون = مخربون

المظاهرات = شغب وفوضى

واخر الشهر وضعوا على رأسه خوذة وفي يده بندقية . ووضعوا في جيبه ١٦٧ ليرة .

– : اذهب ! قالوا له .

فذهب . وكانت تواجهه مسيرة من مزارعي التبغ . شيوخ . نساء . اطفال .

هذا الشيخ . يتوكأ على عصا . يقح . انه يشبه ابوه .

هذه المرأة ، سمينة ، يغطي رأسها بشال ابيض . تزغرد حينا . تشتم حينا . ابتسم يذكر امه .

ولقد فكر ايضا بمداعبة الصغار .

ثم ...

اوامر !

اضرب ! اضرب ! اضرب !

لم يعرف كيف حدث هذا . كان الجميع يضربون . تكت البندقية في يده . واحس بالم هائل يعتصر قلبه .

تكة ثانية . ثالثة ..

ثم اصبح لصالح وجه آخر ..

ومع هذا فقد كان لصالح قبل لحظة وجه طفولي .. وجه شاب في السابعة عشرة لوحته الشمس. يطرطر فوق شفتيه الرفيعتين زغب اصفر . وكان يبتسم احيانا .

●

اين رأيت هذا الوجه ؟ تساءلت مرة اخرى . تطلعت الى رفيقه الاخر في الشاحنة. عجيب ، انه يشبهه . والاخر .. والاخر ..

اين رأيت هذا الوجه ؟

اين رأيت هذا الوجه ؟

في تركيا ؟ في الفيتنام ؟ في اليونان ؟ في اسبانيا ؟ في اكثر من شارع وساحة عربية ؟

ثم تذكرت

للجلادين اوجه متشابهة .. ■■

شاهين

وصية أمام المشنقة

شعر

راسم المدهون

اقف الان امام المشنقه
جثتي تعبق بالحزن الفدائي وصوتي ،
صارخ في الريح بوقا حجريا
وعيوني زنبقه
سقط الان على حد السيوف العربيه
فاجمعوا اخشابكم يا ايها الفقراء واتوني ،
سيف او صليب
خفرت ذمة تاريخي انحناءات المصلين ،
على باب الخليفه
اسلمتني للسنين السود احلام الغيوب
ورمتني تائها في الليل
احتج
واحتج
واحتج
وابكي
للسيوف الشبقه
فاجمعوا اخشابكم يا ايها الفقراء ،
واتوني بحبل من مسد
علني اصلب في باب القرى وجه الخطيئه
او تدور الارض للخلف
تغيب الشمس من جهة الشروق
فانادي ان هذا اليوم ميعاد الخليقه
كي تفك الشك عن وجه يهوذا
وتصلي للصليب
احلف الان بان الله يباع العذابات
ولحم الفقراء
ويروي غلة العطشى لاكواب الدماء
فلماذا تحسدوني ...
حين تمتد المرايا فوق وجهي
وتغطيني الجرائد
ولماذا تكرهوني
حين تحتد سنين الحزن في صدري
فامضي عاريا للمذبحه
وانا مذ كنت في الريح تلاويح قصيده
ابعدتها الريح للريح واودتها سنون الحزن ،
للدنيا البعيده
واذا ما عدت مخذولا غداة الانسحاب
فارق الاسياد حالات السكينه
واحالوني الى لوح العذاب
وانا في مدن الصمت قمر يا بلادي

وانا لا املك الان ،
سوى حقد البقايا الطيبين
وتباشير الفرح
تختفي حينا وراء القيد والسجن
وتدنو مرة اخرى على وجه مقاتل
وانا لا املك الان سوى
حزن الجياع الفقراء
حين ينصون عن السيف الصدء
ويصلون لوجه الله قداس الخروج
من قفار الخوف والجوع وذل الضعفاء

ويغنون لحرب لا تذر
فاجمعوا احقادكم يا ايها الفقراء
واتوني بسيف او شظيه
هالك من لم يصن في اعين الدنيا
بقايا البشريه
هالك من لم يخبي
في خوابي الزيت يوما بندقيه

راسم المدهون
درعا ١٩٧٢/١/٢٢

غسان كنفاني
الكلمة البندقية
فيلم من إنتاج لجنة الاعلام
المركزية في الجبهة الشعبية
لتحرير فلسطين
٢٠ دقيقة - ١٦ ملم مترجم

الهدف
جريدة سينمائية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
العدد الأول
تلخيص للمؤتمر الصحفي للرفيق جورج حبش
٩ دقائق - ١٦ ملم